أثرُ التّواصل غير اللُّغويّ في آيات الأمن النّفسيّ

The effect of non-linguistic Communication on Psychological Security Verses

م.م. جنان صاحب كطافة الموسوي
Jinan Sahib Gatafa Al-Mousawi
Jnanalmwswy595@gmail.com
أ.د. المتمرس م أ.د. المتمرس نافِ مهدي الموسوي
Munaf Mahdi Al-Mousawi

الملخص:

يـدرس هـذا البحث الخِطــاب القرآنيّ للتواصل غير اللغوي في (آيات الأَمنِ النَّفســيّ)؛ لأهميته في العملية التّواصلية، وانعكاســه على نفسيَّةِ المُتلقّي، ومدى تفاعلِه مَعَ الخطابِ، بُغيةَ تحقيقِ الأَمنِ النَّفســيّ له على وفق محورين، يعرض الأول: **الأثرُ النّفسي للسلوكِ الحركي فِي التّواصل،** ويتناول الثاني: **الأثر النفسي للغة الرمز في التواصل.** وقد توصّل البحث إلى تعدد أنماطُ السّلوكِ الحركي فِي آياتِ الأمن النّفسي، ويمكنُ تصنيفها إلى خمسة أصناف:(لغةُ العينِ، إشــاراتُ اليدِ، حركةُ الرأسِ، تعابيرُ الوجــه)، وأنّ تعابيرَ الوجهِ هي أكثر أنواع التّواصل غير اللُّغوي فِي آياتِ الأَمن النّفسي؛ لأنّ الوجهَ مرآةُ الإنسانِ، ويعكسُ مَا في داخله.

الكلمات المفتاحية: الخطاب القرآني، التواصل غير اللغوي، الأمن النفسي.

Abstract

This search studies the Qur'anic discourse of non-linguistic communication in (verses of psychological security); Because of its importance in the communicative process, and its reflection on the psychology of the recipient, and the extent of his interaction with the discourse, in order to achieve his psychological security according to two axes, the first presents: the psychological effect of motor behavior in communication, and the second deals with the psychological effect of the symbol language in communication. The search has found a multiplicity of patterns of motor behavior in the verses of psychological security, and they can be classified into five categories: (eye language, hand signals, head movement, facial expressions). And that facial expressions are the most common types of non-linguistic communication in the verses of psychological security; Because the face is the mirror of human, and it reflects what is inside him.

Keywords: Quranic discourse, non-linguistic communication, psychological security.

المُقدّمة

الحمدُ للهِ الَّذي بذكره تطمئنُ القلوبُ، والصّلاة والسّلام على المبعوث للأنام فحلّت به في نفوسِنا السكينةُ والاطمئنانُ، وعلى آله المنزهينَ من الأوثان، وبعد:

إنَّ للحركات والإيماءات أهمية كبرى في توضيح التواصل، ولا يقتصر ذلك على الإنسان وحده؛ بل يتعداه إلى غيره من الكائنات، فالنّملُ -مثلا - يتواصل مع بعض بحركات معينة كما في قصة نبي الله سليمان والنملة؛ لذا سيدرس هذا البحث الخِطابِ القرآنيّ للتواصل غير اللغوي في آيات الأَمنِ النَّفسيّ؛ لأهميته في العملية التّواصلية، وانعكاسه على نفسيَّةِ المُتلقّي، ومدى تفاعلِه مَعَ الخطابِ، بُغيةَ تحقيقِ الأَمنِ النَّفسيّ له على وفق محورين، عرض الأول: الأثرُ النّفسي للسلوكِ الحركي فِي التّواصل، وتناول الثاني: الأثر النفسي للغة الرمز في التواصل.

المحور الأول: الأثرُ النّفسي للسلوكِ الحركي فِي التّواصل

السّـلوكُ الحركـيّ نوعٌ مِنْ أنـواعِ التّواصلِ غيرِ اللّفظي(التّواصـل الصّامت)، قوامُه الحركاتُ السُّـلوكيَّةُ الجسـميَّةُ، ومَا تحملُه مِنْ إيماءاتٍ معروفةٍ لدى طرفي الخطابِ(المُرسـل والمُرسـل إليه) عنْ طريق القِوى المَعرفيّةِ المخزونةِ عِنْدَهم، إذ يُعدُّ علمُ الحركةِ الجسـميّةِ أَحدَ أبرز المباحثِ العامّةِ فِي الدِّراساتِ الدَّلاليَّةِ الحديثةِ فَقَد« اهتمَ بهذا العِلمِ في أمريكا كلٌّ مِن فرانر بواس، وإدوارد سـابيير، ولم يقفْ بيير دوسل عندَ الحركةِ وحسب، بل يرى أنَّ انعدامَها أحياناً وبغـرضٍ قصـدي له بُعدٌ دلاليٌّ، وقَدْ يكـونُ فِي أدائهِ أَبعد مِنَ الحكمِ، ومِـنْ أمثلةِ ذلكَ الصَّمتُ أبلغ مِنَ الحكمةِ، ويمكنُ أنْ تحلَّ محلَ اللَّفظِ». (محمد علي عبد الكريم الرديني،٢٠٠٧ :٩٩).

وفـي ضـوءِ مـا تقدّم، يبدو أن لحركةِ الجسـمِ بُعداً تواصلياً، ولهـا أهميّة تخاطبية داخلَ المنظومـةِ التّواصليـة «فهذه الأفعالُ في كثيـرٍ منَ الأحيانِ تُحقّقُ الاتّصالَ بيـنَ النَّاسِ كالنُّطقِ تماماً، وهي قد تسـتقلُ عنَ الكلامِ لتُؤدّي غرضَهـا منفردة، وقد تكونُ مصاحبةً للكلامِ في كثيرٍ منَ الأحيانِ».(عودة عبد عودة عبد الله، ٢٠٠٤: ١٠).

ومِمّـا تقـدمَ، يظهرُ جلياً أنَّ لغةَ الجسـمِ وحركاته مَا هي إلا مرآة تعكسُ حالةَ الشَّـخصِ العاطفيّة والنّفسيَّة، فالخوفُ والحزنُ والفرحُ والقلقُ كلُّ انفعالٍ له حركاته الخاصّة الَّتِي تترجمُه، وكلُّ شـخصٍ قادرٌ على فكِّ شـفراتِ جسـمِ مخاطبه، فلو فتحْتَ ذراعيكَ أمـامَ طفلٍ لا يتجاوزُ السّـنتينِ مِنْ عمره سـيركضُ نحوَكَ؛ لأنّه فَهِمَ مِن فَتْحِ الذّراعينِ رسالةً تواصليّةً مُفادها الضّم، ولكنكَ لو رفعتَ يدكَ فِي وجهه لتراجعَ خائفاً؛ ومَا ذلكَ إلاّ لأنّنا أرسلْنا له رسالةً تواصليّةً مفادها العقاب، وبحواسِـه كانَ قادرا على فكِّ شـفراتِ تلكَ الرّسـالةِ؛ لأنَّ الإنسـانَ«يسـتخدمُ أعضاءَ جسـمِه، بل جسـمُه كلُّه في التّواصلِ معَ الآخرين، إنّه يتكلّمُ بجسـمه، كما يتكلّمُ بلسانهِ، وتحملُ حركاتُـه وإشـاراتُه دلالاتٍ يمكنُ أنْ تكونَ مفهومةً مثل كلمـات اللُّغة تماماً».(محمد علي عبد الكريم الرديني، ٢٠٠٧ :٩٩)

ويشـملُ السّـلوكُ كلَّ حركةٍ جسـميةٍ يقومُ بِها الإنسـانُ، يهدفُ من ورائها إلى إيصالِ رسـالة صامتة للمُتلقّي، ومِنْ بينَها: (حركةُ اليدِ، وحركةُ الرّأسِ، وحركة القدمِ.... إلخ)، فضلاً عَنِ الانفعالات الَّتِي تعبّرُ عن مشـاعرِ الإنسـانِ الدَّاخليّة من رضا أو سخط أو قبول أو رفض، وهذه السُّـلوكيات الدَّاخليّة والخارجية تؤثرُ بشَـكلٍ مباشرٍ في العمليّةِ التّواصليّة؛ لِمَا تعكسُه مِنْ مثيراتٍ واستجاباتٍ لها بينَ المُتكلمِ والمخاطبِ، وقد برزَ أثرُ ذلكَ في أكثرَ مِن موضعٍ في آيات الأمن النَّفسي، وكما يأتي:

- **المطلب الأول: السلوك الحركي لليد في التواصل:**

ورد **السُّلوك الحركي لليد** في القرآن الكريم في قوله تعالى: **{ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ**

عَذَابٌ أَلِيم(٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِين(٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِين (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيم (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِين (٢٩)}(يوسف:٢٥-٢٩) ، حوارٌ تواصليٌّ تعددتِ أصواتُ الحوارِ فيه، امرأة العزيزِ، يوسف (ع) في قفص الاتهام، وعزيزُ مصر قاضٍ يبحثُ عن دليل براءةٍ أو اتهام، وكلا المتهمينِ يدرأُ التهمةَ عن نفسه، والقاضي حائر يتجاذبه صوتان، صوتٌ من وصفتْ بالمودةِ والقُربى زوجته تصرخُ ببراءةٍ تطالب بحقٍّ مزعوم، وصوتٌ من تربى وترعرع بين يديه وتوسَّم فيه الابنَ الحامي له(يوسف)، وكلاهما في موقفٍ مضطرب يُنادي ببراءته في مشهدٍ يُخيّمُ عليه السكونُ والصمتُ يرمزُ لحالةٍ نفسيةٍ، ويُجسّمُ صورةً شعوريةً تعكسُ حالةَ الاضطرابِ. (ينظر:سيد قطب،١٩٦٧م ، ٤٦/١)، وتقطعه امرأة العزيز بالفعل الكلامي التوجيهي:{ ما جزاءُ منَ أرادَ بأهلكَ سوءً} مزيفة الحقائق وكأنّها ترمي التهمة كاملةً على يوسف ليصبح في موقف لا يُحسد عليه، لكنَّ اللهَ لا يتركُ عبدَه فيُنزلُ اللهُ رحمتَه وسكينته بصوتِ الشاهدِ المعجزةِ بالفعل الكلامي الاعلاني{ **إن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِين(٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِين (٢٧)**} لتظهر الحقيقةُ عن طريق إرسال رسالة تواصلية تصفُ البريء من دونِ النُّطق باسمه عن طريق تحديد الحركة السلوكية لليد في قد القميص؛ لتجعلَ العزيزَ يكتشفُ المذنبَ بنفسهِ، فكلامُ الشاهدِ عيَّنَ المذنبَ بحجةٍ دامغةٍ من الواقع، وأخرجهم من دائرة الشّكِ وتعدد الاحتمالات.

وبناءً على ما سبقَ: مثَّلَ الأداءُ الحركي لِقَدِّ القميصِ من قبلِ امرأةِ العزيزِ براءةَ يوسفَ بعد إن كان هذا الفعلُ الحركيُّ بنظرها يمثلُ دليلَ براءةٍ لها، فأصبحَ دليلَ تهمةٍ لها وبراءة وامنٍ ليوسف (ع)، ونقلتْ لجميع الحاضرين رسالةً تواصليةً غير لغوية لبراءة وطهر وعفة يوسف، وهذا يعني أنَّ شفرةَ الكلامِ تتمثلُ بمعرفة دلالة هيأة القميص؛ ولأنَّ الواقع المحيط يقتضي أنّه لو كان يوسف هو من بدأ بالمراودة لاقتضى أن يكون قدُّ القميص من الأمام باعتبار حركة اليدين له لأنّه هو من يبدأ الهجوم، أما لو كانَتْ هي فسيكونُ من الخلفِ باعتبار هروبه واستعمال يديها للتمسك به، وبعدَ النظرِ بالقميص تبينت الحقيقة، ليستبدل اللهُ خوفَ يوسف آمنا؛ لأنّ((النّفس المطمئنة تُسلّمُ أمرَها لِمَنْ ترضى بِمَا قُسِمَ لها، وتصبرُ عَلى مَا أتاها مِن امتحان حتّى لا تغفلُ أو تنسى، ومعنى هذا أنَّ الابتلاءَ هو سبيلُ الصّحة النّفسية إذ يستقيمُ به حال النّفسِ ولا تقعُ صريعةَ الإحباطات الحادة)). (لطفي بركات أحمد، ١٩٨١ :٤٥).

وتمثلت عناصر التواصل بالآتي:

المرسل إليه: الحاضرون، قناة الارسال: تواصل مباشر، المُرسل: الشاهد، الرسالة: اعلان

براءة يوسف، شفراتها وسُننها: تمثلت في التواصل غير اللغوي بالسلوك الحركي لليد في قدِّ القميص، السياق: سياق اجتماعي.

- **المطلب الثاني: السلوك الحركي للرأس في التواصل:**

ويُستعاض بالرّأسِ عَنِ اللفظِ فِي بعض الأحيان حينَمَا تكونُ((الإشارةُ أبلغَ مِن العبارةِ)).(ابن جني،١٩٥٢ :٨٠/١) ، كما في قوله تعالى: **{ وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَار(٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي - رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء(٤٣)}(إبراهيم:٤٢-٤٣)**، خطابٌ تواصلي بينَ اللهِ- سبحانه وتعالى- ونبيه محمد (ص)يحملُ رسالةً موجّهةً للناسِ كافّة، رسالة نفسية تزرعُ الأمنَ والرّضا فِي نفوسِهم حولَ ترك المُنافقينَ و المشركينَ والظّالمينَ مرفّهينَ في قصورهم، ومتمادينَ في ظلمِهم مِن جانب، ومِن جانب آخر هناكَ من المؤمنينَ مَنْ تضيقُ بِهُمْ سبلُ الحياةِ، فقدْ يتبادرُ فِي ذهنِ بعضهم أنَّ فِي هاتينِ الصّورتينِ يُعدمُ العدلُ، وكثيرا مَا نشاهدُ كلماتِ بعض النّاس تصدحُ ناطقةً لِمَ عباد اللهِ يتعرّضونَ للبلاء، وغيرهم يغمرونَ في الرّخاء؟ !

يجيبُ النّصُّ القرآنيُّ عَنْ ذلكَ التساؤل بقوله: {ولا تحسبنَّ اللهُ غافل عمّا يعملُ الظالمونَ إنَّما يُؤخرهم ليوم..} أي: ((ولا تحسبنَّ ظاهرها نهي عَنْ حسبان ذلكَ، وهذا النّهي كناية عن إثبات وتحقّق ضدَّ المنهي عنه فِي المقام الّذي من شأنه أن يثيرَ للناسِ ظنّ وقوع المنهي عنه لقوّة الأسباب المثيرة لذلكَ. وذلكَ أنَّ إمهالهم وتأخير عقوبتهم يشبهُ حال الغافل عَن أعمالهم، إي تحقّق أنّ اللهَ ليس بغافلٍ، وهو كناية ثانية عَنْ لازمِ عدم الغفلة وهو المؤاخذة.. وعلى هذا الاستعمالِ جاءتِ الآيةُ سواء جعلنَا الخطابَ لكلّ مَن يصحُّ أنْ يُخاطبَ فيدخلُ فيه النبيء _ عليه الصلاة والسلام _ أَمْ جعلنا للنبيء ابتداء ويدخلُ فيه أمّته)) (ابن عاشور،١٩٨٤ :٢٢٥/١٣_٢٤٦)، وعلى الحالتينِ فهو خطابُ أمن نفسي يسوقُ صورتَهم يومَ القيامةِ، وطريقة تواصلهم مع الذّات الإلهية المقدّسة لتطمئنَّ قلوبُ المؤمنينَ.

وتصوّرُ الآيةُ حالهم بصورةٍ حركيةٍ مزريةٍ في تواصل صامت غير لفظي قوامه حركات سلوكية عدّة تعكسُ حالهم في ذلكَ اليوم، وما يعتريهم منْ خوفٍ وذهولٍ لهول مَا يُشاهدونَ فتتعطل عندَهم لغة الكلام لتنوبَ عنها لغةُ الجسم بحركاتٍ سلوكيةٍ عدّةٍ تضافرتْ فيما بينَها لتصوير حال ذلكَ المرفّه فِي الدُّنيا تنفيرا من الكفرِ وترهيبا منه، تبدأُ بوصفِ مشيتهم بالإهطاع، والإهطاعُ هو الإسراعُ بالمشي مع مدّ العُنقِ للأمام كالمُتختلِ (ظ: الراغب الاصفهاني،٢٠٠٩ :٨٤٣)، وهي مشيةُ الخائفِ ذليلة{ لا يرتدُّ إليهم طرفهم} حتّى جفن العين لا يتحركُ{ وأفئدتهم هواء} خالية لا تعي شيئاً، ولا تعقلُ مِنَ الخوفِ(ظ: الطبرسي،١٩٨٦ :٦٦/٦_٦٧)، وقدْ تضافرتْ معها حركةٌ أُخرى وهي (إقناعُ الرأسِ)، واقناعُ الرّأسِ يرادُ به طأطأته منَ الذُّلِ

(ظ: البغوي،١٩٨٩ :٣٥٩/٤) حركةٌ سلوكيّةٌ تواصليةٌ تُغني عن ألفِ عبارةٍ وعبارة، ضاعتِ الكلماتُ وتلاشتِ الأصواتُ، لا يوجدُ جواب في حضرة الذّاتِ المقدّسة إلا اقناعَ الرّأسِ، فأيُّ جوابٍ يبرّرُ ما فعلوه.!!

رؤوسٌ خائفة، مشيةٌ ذليلة، فالحركاتُ السّلوكية كلّها ترسمُ صورتهم، وتعبّرُ عن حالهم، وتعكسُ طريقةَ تواصلهم الصّامت لتمدَّ المؤمنينَ بطاقةٍ نفسيةٍ تتحمّلُ ظلَمهم، وجبروتهم في عالم الدنيا فما يؤلونَ إليه أَصبحَ معروفاً، والتّواصل هنا جاء بصورتين: أولهما لفظيّ مع الله ورسوله(ص) يحملُ رسالة هدفها التّخفيف عن نفوسِ المؤمنين ببيانِ مصير الظّالمين، وثانيهما: تواصل غير لفظي صامت تكونت عناصره من المرسل إليه: الله _ عزّ وجل_، و المُرسل :الظالمون، وقناة الارسال: تواصل غير لفظي، رسالته: بيان حال الكافرين ومآلهم يوم القيامة، وشفراته وسُننه تمثلت: في مجموعة من السلوكيات الحركية التي تعبر عن الذل والهول، والسياق الذي يجمعها:سياق موقف.

- **المطلب الثالث: السلوك الحركي للعين:**

تلعبُ **العينانِ** دوراً مهماً في مجال التواصل بين الأفراد؛ لأنّه ليسَ من السهلِ ترجمة بعض مواقف الشدّة بوساطة الكلماتِ فقط، بل تعكسُ العينانِ تلك الانفعالات الدَّاخلية، فهما سفيرا النّفسِ والموضع الرَّمزي للحقيقة الَّتي لا تنطقها الكلمات في الموقف الكلامي(ظ: جوزيف ميسنجر، ٢٠٠٧ :٢٥٦- ٢٥٨.)، ونبّه ابنُ جني(٣٩٢هـ) على ذلك بقوله:« أو لا تعلم أنَّ الإنسانَ إذا عناه أمرٌ فأرادَ أن يُخاطبَ به صاحبَه، ويُنعمَ تصويره له في نفسه استعطفه ليُقبل عليه؛ فيقول له: يا فلان أين أنت أرني وجهك، أقبل عليَّ أُحدِّثك ...فإذا أقبلَ عليه، وأصغى إليه، أندفعَ يحدثه، أو يأمره، أو ينهاه، أو نحو ذلك، فلو كان استماعُ الأُذنِ مغنياً عن مقابلة العين، مجزئاً عنه لما تكلّف القائلُ، ولا كلّفَ صاحبه الإقبال عليه، والاصغاء إليه»(ابن جني،١٩٥٢ :٢٤٦/١-٢٤٧)، وهذا يدلُّ على تنبّه ابن جني وإدراكه لمدى أهميّة العين في سيرورة العملية التّواصلية بحيث لا يمكن للأذن أن تسدَ مسدها، وهذا ما أكدّه العلماء في العصر الحديث وأشاروا إليه من أنَّ العينَ« قد تُعطي كلَّ إشارات الاتصالات البشرية الأكثر كشفاً ودقةَ من دون كلّ الاتصالات لأنّها نقطة بؤرية على الجسم»(آلن بيز، ١٩٩٧: ٩٤)

وقد يتخذُ بعض الأشخاصِ حركاتٍ سلوكيةً إشاريةً تكونُ بمثابة لُغةً مشتركة بينهم، واطلاع الحاضرينَ، ومعرفتهم بأسرار هذه الحركة يعدُّ أمنا واطمئناناً نفسياً لهم ؛ لكي يُؤمنوا شرهم، وهذا ما منَّ به اللهُ _ سبحانه وتعالى_ على رسوله(ص) بمعرفة ما يدورُ في نفوس المنافقين من خلال إشارات حركيّة اتخذوها لغةً بينهم، كما في قوله تعالى:{ **وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ**

يَفْقَهُون} (التوبة:١٢٧)، يُصوّرُ السِّياقُ الدَّلالي للآية موقفَ المنافقينَ من نزولِ آياتِ القرآن الكريم إذ تتقابلُ عيونُهم ناظرةً بعضها إلى بعض نظرة «تعجب واستفهام... ويدلُّ أيضا على أنّهم كاتمونَ تعجبهم من ظهور أحوالهم خشية الاعتراف بما نُسبَ إليهم؛ ولذلك اجتزوا بالتناظر دونَ الكلام، فالنظرُ هنا نظر دال على ما في ضمير الناظر من التّعجب والاستفهام» (ابن عاشور، ١٩٨٤ :٦٨/١١-٦٩)، وهناك من فسّرَ دلالةَ حركة العين هناك بأنّها إنكاراً لنزول آيات القرآن الكريم أو غيظاً لما فيها من مخازيهم(ظ: أبو السعود، د.ت :١١٣/٤)، أو« ..تغامزاً بالعيون انكارا للوحي، وسخرية به..» (الزمخشري، الكشّاف،٢٠٠١ :٣١٠/٢).

وعلى أيّ حالٍ فُسِر به السلوك الحركي لهذه النظرات فهي تُنبئ عن نفسية قلقة مضطربة وجلة، وما يعززُ ذلك التواصل اللغوي المتمثل بمجيء جملة {هل يراكم من أحد}، والَّتِي تكشفُ عن «قول من يسمعُ حديثا لا يطيقه، ويضيقُ بذلك صدره فيتغيّرُ لونه، ويظهرُ القلقُ والاضطرابُ في وجهه فيخافُ أنْ يُلتفت إليه، ويظهر السّر الذي طواه في قلبه فينظر إلى بعض من كان قد أودعه سرّه، وأوقفه على باطن أمره كأنّه يستفسره هل يطلع على ما بنا من القلق والاضطراب أحد؟» (الطباطبائي، الميزان، د.ت:٤٢٦/٩).

ومِمَّا تقدّم، فإنّ تبادل النظرات بينهم يُكشف عن حزمة من المشاعر الَّتِي تغور في أعماقهم، وتتجلّى في نظراتهم، وتلك النظرات مرتبطة بالموقف الاتصالي للعين الذي كشفَ أسرار المنافقينَ، حيث انخدعَ بعض المؤمنينَ بهم، وذلك من باب التحذير، والأمن للمؤمنينَ، وكأنَّ الإنسانَ إذا انتبه لحركاتِ الغمزِ في عيونهم فإنّه يتوجسُ منهم شرّاً فيأخذ حذره(ظ: ابن عاشور، التحرير والتنوير،١٩٨٤ :٦٨/١١-٦٩)، فترسمُ الدلالةُ القرآنيةُ الناجمة عن الحركة التواصلية بتعدّد الدلالات المتولدة عن هذه الحركة بلغة الجسد بين هؤلاء عن الاضطراب والقلق النّفسي الداخلي المتولد من دلالات الغيظ والقلق والإنكار والسخرية، الذي حاولوا بكلِّ طُرقهم أن يخفوه؛ لئلا يُفتضح أمرهم، إلا إنَّ نظراتِ عيونهم كشفتْ ذلك، وأصبحوا معروفينَ عند الرسول(ص)، والمؤمنين.

ويتجلّى الأمنُ النّفسي في«تأثير هذه النّظراتِ على المُستقبل فإنّه تمثّلَ في معرفة نفوس هؤلاء والحذر منهم، فهو قد فَهِمَ من وراء التّغامز لغةً متبادلةً بينَ مرسليها تستشفُّ عن عداوةٍ، وتنمُّ عن كيد للأخرين»(د. أحمد رشيد حسين، و د. إيمان خليفة إسماعيل ظاهر، ٢٠١٨ :٢٥)، وتشكَّلت أطراف الخطاب من المرسل(الله- عزّ وجل-)، والمرسل إليه(النبي محمد-ص-)، والرسالة تكشف غيض وحقد المنافقين الذين يضمرون عكس ما يظهرون لكنَّ ما بان بحركات عيونهم فضح ما في قلوبهم اتجاه النبي(ص) والمؤمنين، فجاءت هذه الرسالة لتحذر النبي والمؤمنين منهم، وفي ذلك طمأنة تبين رعاية الله لهم، والذي تكفل

بنقل الرسالة للرسول(ص)جبرائيل(ع)، ليقوم النبي بنقلها للمؤمنين لتحذيرهم من هؤلاء، وشفرات الرسالة تتمثل بالتّواصل غير اللغوي بتعبيرات وجوههم التي شكلت رموزا فيما بينهما، ولكن برسالة الله للمؤمنين والنبي أصبحوا قادرين على فك شفراتها.

- **المطلب الرابع: السلوك الحركي للفم في التواصل:**

ويعدُّ الفم الأداة الأولى والرئيسة للتواصل اللغوي، ولكن هذا لا يمنعُ أنْ يُستعملَ كأداة للتواصل غير اللغوي، فضلا عن اشتراكه مع العين في التعبير عن الانفعالات النفسية مثل الدهشة والفرح والحزن، وللفمِ دورٌ بارزٌ في النيابة عن اللفظ، والإبانة عن القصد، وتكون دلالته مفردة أو مركّبة. (ظ: د. وليد محمد السراقبي،٢٠١٨: ١٥٥).

ومن أهمّ الإشارات الجسدية غير اللفظية للفمِ هما (التبسم، والضحك)؛ لأنّهما يدّلانِ على الرّضا والاستحسان بينَ طرفي الخطابِ كما أنّهما يُعدان مفتاحَ القبولِ والرّضا، وصمّامَ الأمنِ والأمان بينهما، فهما رسالةٌ واضحةٌ من المتكلمِ للمخاطبِ تُشعره بالارتياح والطمأنينة ممّا يساعدُه على إتمام الخطاب المشترك بينهما بصيغةٍ ناجحة (ظ:د.عودة عبد عودة عبد الله، ٢٠٠٤: ٢٣).

ويُطلقُ على أوّل مراتبِ الضحك بـ(التبسّم)، فهو أقلُّ الضحكِ وأحسنه؛ لمسرة تحصل.(ظ: السجستاني،١٩٩٥: ١٥١ ؛ و ظ: السمين الحلبي ، ١٩٨٧: ٤٩؛ وظ: الجوهري،١٩٩٠ :٨٠٦/٢؛ وظ: الزبيدي،١٩٨٧ :٤٥/١٤) ، ودليلُ ذلك ما قاله الزجاج (٣١١ه)بـأنَّ: « أكثر ضحكِ الأنبياء عليهم السلام التبسّم»(الزجاج، معاني القرآن وأعرابه، ١٩٨٨ :١١٢/٤)، ولم يُذكر التبسّم في القرآن الكريم إلاّ في آية واحدة، وهي تبسّم النبي سليمان(ع) عند سماعه لقول النملة، وقد أعقبه (ضاحكاً)، وقد أرسل النبي سليمان(ع) بما يتمتعُ به من قوّة وسلطان، بسلوكه الحركي هذا رسالة أمن واطمئنان لتلك النملة الَّتِي كانت خائفة مرتعدة من أن يسحقها جيش ذلك السلطان ولكنّه بابتسامة بسيطة هدّأ من روعها وأعطاه الأمان وتلك هي صفات القائد الّذي يطبّقُ حدودَ ربّه في حماية رعيته لا فرق عنده بين إنسان أو حيوان.

أمّا الضّحكُ فهو استعدادٌ فطري غريزي في الإنسانِ، وله ثلاثةُ أركانِ: باعث أو مؤثر يستدعي الضّحك ويستثيرُ الإنسان، وحالة انفعالية مصاحبة لذلك التّأثير، ووظيفة أو غاية يسعى إلى تحقيقها الشَّخص منَ الضحك فليس كلُّ ضحكٍ يكونُ نابعاً من السَّعادة أو الرِّضا وإدخال السِّرور لنفس المخاطب، بل ثمّة ضحك يهدفُ من ورائه الشَّخصُ استفزاز المخاطب والاستهزاء به. (ظ: د. نعمان محمد أمين طه، ١٣٩٨هـ:١٩)

وقد وردت مادة الضحك في الكريم (عشر مرات) على نوعين:(ضحك ممدوح، وضحك مذموم)، وجاء التقسيمُ من خلال الأثر الَّذي يسعى المتكلمُ لتركه في نفس المخاطب، ومنْ ذلك

المقابلة القرآنية بين فعل الكافرين وبشارة المؤمنين في قولِه تعالى: { **إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ(٢٩) وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ(٣٠) وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ(٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاَءِ لَضَالُّونَ(٣٢) ومَآ أُرسِلوا عَلَيهِم حَافِظِينَ(٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ(٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ(٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ(٣٦)**}(المطففين:٢٩-٣٦)، ترسلُ الآياتُ رسالةً تواصليّةً هدفها إيصال عقوبة، وإرساء قيم سلوكية اجتماعية تقويمية من ((مشاهد منتزعة من واقع البيئة في مكة. ولكنها متكررة في أجيال وفي مواطن شتى. وكثير من المعاصرين شهدوها كأنما هذه الآيات قد نزلت في وصفها وتصويرها. مما يدل على أن طبيعة الفجار المجرمين واحدة متشابهة في موقفها من الأبرار في جميع البيئات والعصور!!))(سيد قطب،١٩٦٧ :٦/ ٣٨٦٠)، عرضت الآية المباركة أكثر من سلوك غير لغوي ببعض حركات الجسد كالضحك والتغامز، ونهى عنه الدين الاسلامي، وهذا ما أكدّه افتتاح الآية بـ((إنّ الذين أجرموا} بصورة الكلام المؤكد لإفادة الاهتمام بالكلام ...المراد إعلانه لتوجه بذلك الافتتاح جميع السامعين إلى استماعه للإشعار بأنّه خبر مهم))(ابن عاشور،١٩٨٤ :٣٠/٢١٠)؛ لأنّه يدلُّ على استهزاء وسخرية الكفّار بالمؤمنين، بحركات غير لغوية كالتغامز، والضحك منهم أو بهم إضافة إلى تسفيه عقولهم وسلوكهم، ولم يقف الحد بذلك بل عند عودة هؤلاء الأنذال إلى بيوتهم يجعلون أفعالهم تلك مادة لسمرهم، وترفيههم كأنّهم يفتخرون بذلك، وقد أفاد مجيء الاسم الموصول(الذي) للتنبيه على أن تلك التصرفات أفعال إجرامية شنيعة، وأثمها عظيم(ظ: سيد كسروي، د,ت ،١٢٣)؛ ولا تصدر إلا من أناس جهلاء مجرمين كما وصفهم النَّصُّ الكريم بـ((«أجرموا» بدلا من «كفروا» للإشارة إلى إمكان معرفة الكافرين من خلال أعمالهم الإجرامية، فالكفر دائماً مصدر للجرائم والعصيان))

(الشيرازي،١٤٢٦ه:١٥/١٨٨.) أوهموا أنفسهم بأمن زائل لوقت معلوم، وهذا ما دلّ عليه تكرار (إذ) ثلاث مرات للدلالة على الزَّمان الماضي، فضلا عن اشتراك الفعل الماضي (كانوا) معها في دلالة المضي ليدلَّ على أن تلك الأفعال كانت صفات ملازمة لهم، ومتجددة بدلالة مجيء الفعل (يضحكون) بصيغة الفعل المضارع الدالة على تجدد ضحكهم وكأنّه ديدن ملازم لهم (ظ:ابن عاشور،١٩٨٤ :٣٠/٢١٠-٢١١).

وبالتأكيد، لهذا الضحك أثرٌ في نفوس المؤمنين؛ لأنّه ضحكٌ استفزازيٌّ دالٌ على السخرية والاستهزاء لكنَّ سياقَ النَّصِّ في عرض أفعال الكفّار كان يدورُ في حلقة الزمان الماضي من خلال الإشارات الزمانية الماضوية، وهذا يعني أن تلك الأفعال انتهت بانتهاء أصحابها، وجاء عرضها لتكونَ رسالةً، الهدفُ منها تقويم السلوك والابتعاد عنها، بيدَ أنَّ عدالةَ اللهِ

اقتضتْ أنْ يُعكسَ «المشهد لكن بالعدل والحقّ، وبِحُكمِ أحكم الحاكمين، وكأنَّها تعزيةٌ وترضيةٌ للمؤمنين بوعد منجوز» (ظ: ابن عاشور،١٩٨٤ :٣٠/٢١٠-٢١١.) بتدخّل العدالة الإلهية «فقد طوى السياق الدنيا العاجلة الزائلة. فإذا المخاطبون به في الآخرة. يرون نعيم الأبرار الذين آمنوا. وهو يذكر لهم ما كان من أمر الدنيا! إنهم كانوا يضحكون من الذين آمنوا استهزاء بهم، وسخرية منهم..، ثم يضحكون الضحك اللئيم الوضيع، مما يصيب الذين آمنوا، وهم صابرون مترفعون متجملون بأدب المؤمنين!)) (سيد كسروي، د.ت:١٢٣)، لينتقل الخطاب للابتداء بالإشارة الزمانية المتمثلة بالظرف(اليوم)، وتقديمه على الفعل المضارع (يضحكون) للاهتمام به وتعظيمه، ومجيء (الفاء السببية) مع ظرف الزمان؛ لتعكس تلك الصورة المستفزة للكافرين وتدّل على أنّ استهزاءهم بالمؤمنينَ في الدّنيا كانَ سببا في جزائهم (سيد قطب،١٩٦٧ :٦/٣٨٦٠-٣٨٦١).

ترسلُ الآياتُ رسالةً عنوانها السعادة ومحتواها الأمن والاطمئنان بعد انقلاب الأحوال، وفرقٌ بين الموقفين فاليوم المؤمنون يضحكون ناظرين لهم، ونِعْم الله محيطة بهم، وهم « محجوبون عن ربّهم، يقاسونَ ألم هذا الحجاب الذي تهدر معه إنسانيتهم فيصلون الجحيم مع الترذيل والتأنيب..... وهم لم يجدوا «الثواب» المعروف من الكلمة. فنحن نشهدهم اللحظة في الجحيم! ولكنهم من غير شك لاقوا جزاء ما فعلوا. فهو ثوابهم إذن. وبالسخرية الكامنة في كلمة الثواب في هذا المقام!»(ظ:ابن عاشور،١٩٨٤ :٣٠/٢١٤) في عذابٍ أليم، فيا لها من مفارقة أسلوبية انماز بها كلامُ اللهِ، فلكلّ فعلٍ ردُّ فعلٍ مساوٍ له أو مضادٍ له في الاتجاه، إذ تكفّل الباري بالردِّ عن المؤمنين بأنْ يكونَ جزاءُ الكافرينَ من جنسِ أعمالهم، وهو(الضحك) منهم، لكنّه ضحكُ مَنْ تمتّعَ بالخلود الأبدي، والاطمئنان النّفسي والسَّعادة والسّرور، فهو ضحكٌ نابعُ من شدّة الفرحِ.

ويكمنُ الأمنُ النّفسي في الآياتِ المباركةِ عن طريق هذا الفن العالي في العلاجِ الشّعوري الّذي قدّمَه النّصُّ المباركُ للمؤمنينَ جراءَ غطرسة المشركينَ، وأذاهم، وتأثيره في النّفسِ البشريةِ بعنفٍ وعمقٍ، ولكنّ رحمةَ اللهِ كانتْ سندَهم وعونَهم بتثبيت قلوبهم وطمأنتهم، وما عرضتْه الآياتُ من تصويرِ مآل الكافرين ما هو إلا بلسما لقلوبهم. فربُّهم هو الَّذي يصفُّ هذه المواجع. فهو معهم ويراهم، ولا يهملهم - وإنْ أمهلَ الكافرينَ حينا - وهذا وحده أمنٌ لنفسِ المؤمنِ وقلبه، ويمسحُ على آلامه وجراحه. إنَّ ربَّهُم يرى هذا كلّه. ويصفُه في تنزيله. فهو إذن شيء في ميزانه، وهم أقوى من أنْ تزلزلَهم ألاعيبُ المشركينَ الواهيةُ، لأنّهم مطمئنون تماماً بالوعد الإلهي! فضلاً عن ذلك التلميح الموجوع لتلكَ السخرية الرفيعة لأولئك الطغاة، و هذا كانَ بمثابةِ تسلية إلهية للمؤمنينَ المعذبينَ من وسائلِ الكافرينَ المجرمينَ الخسيسة، وأذاهم

البالغ(ظ: سيد قطب،١٩٦٧ :٦/٣٨٦١-٣٨٦٢، و ظ: الشيرازي ، ١٤٢٦ه:١٥/١٩٠).، وتكونت عناصر هذا التواصل المتضاد من المرسل (الكافرون)، والمرسل إليه(المؤمنون)، وقناة التواصل بينهما تواصل مباشر، ورسالة التي يريد الكافرون ايصالها هي السخرية والحط من شأن المؤمنين، و شفراتها: السلوك الحركي المتمثل بالضحك، والغمز الدالة على تجبرهم، وقد انعكسَ الموقفُ بانعكاس المشهد القرآني فأصبحَ المتلقي مخاطباً، والمخاطبُ متلقياً، وتغيّرَ سياقُ الكلامِ بشمولِ الرّحمة الإلهية للمؤمنينَ، وتكونت عناصر التواصل الثاني من: المرسل(المؤمنون)، والمرسل إليه(الكافرون)، وقناة التواصل: تواصل غير لفظي، ورسالته: الرسالة: بيان مصير المؤمنين وشمولهم بالرحمة الالهي، شفراتها: السلوك الحركي المتمثل بالضحك الدال على السرور والاطمئنان النفسي.

المحور الثاني :الأثر النفسي للغة الرمز في التواصل:

نعرضُ في هذا الجانبِ التّواصلَ بلُغةِ الرَّمزِ الَّتِي ترمزُ إلى إثارةِ دوافعِ المُتلقّي بغية إيصالِ رسالة تواصليّة مُعينة مُفهومة المغزى والإيحاء، فالرَّمزُ في اللُّغة: الإيحاءُ والإيماءُ (ابن دريد، ١٩٩١:.٢/ ٧٠٩).

والرُّموزُ((بياناتٌ على هيئةِ أشكالٍ وحروفٍ وكلماتٍ وأَشياء وأفعال تُمثّلُ شيئاً بالإضافة لنفسِها))(د.برنت روبن، ١٩٩١ :١١٥.)، فهي بهذا المعنى تشملُ كلَّ أَدواتِ الاتّصالِ اللَّفظيّ (اللُّغويّ)إذ إنّ اللُّغةَ((..قبل كُلِّ شيءٍ نظامٌ منَ الرّموزِ، ومعنى هذا أنّ اللُّغةَ تكونُ نظاماً متكاملاً))(د. محمود فهمي حجازي، د.ت:١٠.)، وغير اللُّغويّ (الصّامت)على حدٍّ سَواء، ولكن ما يهمُنا هنا هو الرّمزُ غير اللُّغويّ في الاتّصالِ الصَّامتِ، فيمكنُ القولُ عنه بأنَّه أَيّ شيءٍ أو فعلٍ أو شكلٍ أو لونٍ نوظّفُه عند الاستعمالِ بمعنى مُعيّن بحيثُ يصبحُ متعارفاً عليه بينَ أهلِ الثَّقافةِ الواحدةِ على الأَقل كالضَّوء الأَحمر لا يحملُ في حدّ ذاته معنى مُعيَّناً، لكنَّه استُخدمَ كإشارةِ خطرٍ(ظ: برنت روبن، ١٩٩١ :١١٥)، وكذا ارتداء الأَسود منَ الثِّيابِ جُعِلَ إشارةٌ للحزنِ(ظ: محمد سلامة محمد غباري، و السيد عبد الحميد عطية، ١٩٩٩: ٦٠.).

وسيعرضُ هذا المبحثُ الحديثَ عن لُغةِ الأَشياء كرموز، وأقصدُ بلُغةِ الأَشياءِ ما يستعملُ باستثناء لُغةِ الجسدِ للتَّعبيرِ عن معانٍ وأحاسيس يتمُّ نقلها للغيرِ (ظ: صلاح الدين جوهر، ١٩٧٩: ٦٧) بواسطةِ ((الملابس، والحلي، وطريقة التزيّن، وطريقة ترتيب الأَشياءِ، فكلُّها، وغيرها من أَشياء تنقلُ بالتَّأكيدِ رسائلَ للآخرينَ قد تؤثّرُ فيهم سلباً أو إيجاباً)) (د. منال طلعت محمود، ٢٠٠٢ :٣٦)، وتجلّى ذلك في آياتِ الأَمنِ النَّفسيّ، وسيتوقفُ البحثُ عندَ بعضها، وكما يأتي:

- **المطلب الأول: الأثر النفسي للملابس في التواصل:**

شكّلَتْ بعضُ الملابسِ الَّتِي ذُكِرَتْ في آياتِ الأَمنِ النَّفسيّ رموزَ أمنٍ واطمئنانٍ؛ بما أدّته من رسالةٍ تواصليّةٍ هي محورُها الأساسُ، ومن ذلك:(القميص) الَّذي شكّلَ بُعدا تواصليّا مُهماً في قصةِ النَّبي يوسفَ(ع).

قد وظّفَ النَّصُّ القُرآنيُّ(القميص) توظيفا إعجازيا أَبهرَ العقولَ؛ إذ أنَّه حملَ ثلاثَ رسائل تواصليّة للمتلقّي، الأولى: رمزُ الحزنِ، والثّانية: رمزُ البراءة، والثّالثة: رمزُ البشرى، فأصبحَ وسيلةً مُتضادة الاتجاهاتِ تارةً للأمنِ والبُشرى، وأُخرى للحزن والهمّ، وما يهمُنا في هذا المجالِ البعد الثّالث، وهو وسيلةُ البشرى ؛لإدخالِ الأمنِ والسّرورِ والسَّكينةِ فِي نفسِ ذلكَ الشَّيخِ الطَّاعنِ بالسِّن الَّذي أَصبحَ فؤادُه فارغاً بعدَ فُقدانه حشاشة قلبه؛ ليفقدَه حزنُه نظرهَ، لكنّه ظلَّ آمنا مُطمئنا باللهِ، فيمنُّ اللهُ عليه بعودةِ بصرِه وولدِه، وذلك جزاءُ المحسنينَ، كما أَخبرنا النَّصُّ القرآنيُّ في قولِه تعالى: { **اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِين(٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُون(٩٤) قَالُواْ تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ(٩٥) فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُون(٩٦)**}(يوسف:٩٣-٩٦)، تعرضُ الآياتُ حوارينِ تواصليين: الأَوّلُ تواصلٌ لُغويٌّ بينَ يوسفَ(ع)وأُخوتِه بالملفوظِ القوليّ{اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا}، وكلامُ يوسفَ بفعلِ الأمرِ كلامُ الواثقِ الآمنِ المطمئنِ برجوعِ بصرِ أَبيه بمجردِ إلقاءِ القميصِ على وجهِه، وقد ذهبَ بعضُ المفسرينَ إلى أنّ ذلك((وحيٌ من اللهِ))(الرازي، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)،١٩٨١ :٢١٠/١٨).

والحوارُ التَّواصليُّ الآخرُ هو موضعُ الشَّاهدِ فهو حوارٌ اشتركَ فيه أَكثرُ من طرفٍ، فَقدْ بدأَ الحوارُ بتواصلٍ لُغويٍّ بينَ يعقوبَ(ع)، وبينَ مَنْ حضرَ مِنْ أَهلِه قائلاً: { إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُون }، فتمثّلَ الحوارُ التَّواصليُّ في وجهتينِ: الوجهةُ الأولى بينَ يعقوبَ(ع) وأهله وهو خطابٌ تواصليٌّ لفظيٌّ مباشرٌ، والوجهةُ الثَّانيةُ خطابٌ تواصليٌّ غيرُ مباشر معجز بينَ يوسفَ(ع)، وأَبيه عن طريقٍ مغايرٍ للمألوفِ بوساطةِ حاسة الشَّم، وهو أَمرٌ معجزٌ بذاته؛ وذلك لِبُعد المسافةِ بينَ قميصِ يوسفَ(ع)، وبينَ يعقوبَ (ع).

وقد بدأَ كلامَه بالجملةِ الاسميّةِ المبدوءةِ بـ(أنّ)؛ لتأكيدِ كلامِه فهو في قرارةِ نفسه كانَ مطمئنا واثقا لِمَا يقولُ لكنّه أردفَ كلامَه بقولِه : { لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُون }، فبطبيعةِ الحالِ قد دخلَ الشكُ حولَ مصداقية ما يقولُ، فأرادَ(ع) أنْ يؤكِّدَ لهم صحةَ كلامِه، ويطمئنَّ نفوسَهم حولَ ما ذكرَه، و((التفنيدُ النّسبةُ إلى الفندِ، وهو الخرفُ وانكارُ العقلِ من هرمٍ، يُقالُ شيخٌ مفنّدٌ، ولا

يُقالُ عجوزٌ مفنّدةٌ ؛ لأنّها لم تكنْ في شيبتها ذات رأي فتُفند في كبرِها، والمعنى: لولا تفنيدكم إيّاي لصدقتموني»(الزمخشري،٢٠٠١ :٣٢٤/٣.)؛ لأنَّ ريحَ يوسفَ(ع) قَدْ خرجَتْ من حدود مصر، ودخلَتْ إلَى بلادِ الشَّامِ، وهذا هو المرادُ من قولِه تعالى:{ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ}.

والإشارةُ الزَّمنيةُ(لما) أسهمَتْ في ثراءِ الخطابِ اللُّغويّ، وحمولتها الدَّلالية تبيّنُ أَنَّ كلامَ يعقوبَ(ع) كانَ لحظة انطلاق ريحِ يوسفَ، فهي ظرف بمعنى الحين، وفصلَتْ بمعنى تحركَتِ القافلةُ، والمراد بمجرد أَنْ تحركتِ القافلةُ وصلَتْ ريحُ يوسفَ إلى يعقوبَ(ظ: الشيرازي، ١٤٢٦ه:٣٥٩/٦.)، ووصولُ الرَّائحةِ إلى يعقوبَ من هذه المسافةِ البعيدةِ أمرٌ مناقضٌ للعادةِ، فلا بُدَّ أنْ تكونَ هذه معجزة من المعجزات(ظ: الرازي، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)،١٩٨١ :٢١٢/١٨.)، وهذا أمرٌ لا يُصدّقُ؛ ولهذا نفى يعقوبُ(ع) عنه الخرفَ.

ومهما يكنُ الأمرُ، فشمُّ الرَّائحةِ المتولّدةِ منَ القميصِ –هنا- وسيلةٌ تواصليّةٌ غيرُ لفظيّةٍ، ووجهٌ من وجوهِ التَّواصلِ الصَّامتِ بينَ المرسلِ(يوسف _ع_)، والمرسلِ إليه (يعقوب_ ع_)الَّذي تأثَّرَ برائحةِ يوسفَ الكامنةِ في قميصِه، وشفرتُه الكلاميَّةُ{ أجدُ ريحَ يوسف} إذ انتقى التَّعبيرُ القرآنيُّ مفردةَ(أجد) بدلاً من (أشمُّ)، وهذا يدلُّ على دقةِ التَّعبيرِ القرآنيّ في انتقاءِ مفرداتِه، فلفظةُ(أجدُ) تمثّلُ إيحاءً نفسيّاً كبيراً يمنحُ الأملَ ليعقوبَ مرةً أخرى، وتقرّبُ له أملَ اللِّقاءِ بعدَ أنْ طالَ بينَه وبينَ يوسفَ(ع)، وتعيدُ له الأَمانَ النَّفسيَّ.

وهذه هي الرِّسالةُ التَّواصليَّةُ الَّتِي أرادَ يوسفُ(ع) إيصالَها لأبيه من خلال التَّواصلِ الصَّامتِ بشمِّ ريحِه، والشَّمُّ قوّةٌ يُدرَكُ بها الرَّوائحُ (ظ: التفتازاني، د.ت:٤٩٦/٣.)، وقد عُدَّتْ حاسةُ الشمِّ جُزءاً منَ النِّظامِ الدِّفاعي عند الإنسانِ، فهو يتحكّمُ في الذَّاكرةِ والعواطفِ والمزاجِ، والحالاتِ النَّفسيَّةِ عندَ الإنسانِ إذ« إنَّ هناكَ تفاعلاً قوياً بينَ حاسةِ الشّمِّ والعاطفةِ عندما تؤدّي روائحُ متميزةٌ إلى تفعيل ذكرياتٍ عاطفيَّةٍ مُعيّنةٍ فهنا يكونُ الحديثُ عن مَا يُسمّى بتأثيرِ بروست»(د. خالد الأودن، الشم حاسة لها تأثير على عواطفنا:.www.amp.dw.com)، والمقصدُ من تأثيرِ بروست أنّ« ذكريات الماضي المنسية يمكنُ لها أنْ تعودَ مرةً أُخرى إلى الوعي، والشُّعور من خلال الرَّائحةِ والشَّم»(غيداء أبو خيران، أن تشم ذاكرتك كيف ترتبطُ الروائح بالذكريات والمشاعر:www.noonpost.com.).

وهذا ما حصلَ عندَ يعقوبَ(ع) عندما وصلَتْه رسالةُ يوسفَ(ع) التَّواصليَّةُ عن طريقِ شمِّ رائحتِه المتولّدةِ من قميصِه، وقد كانَتْ هذه الرِّسالةُ« ..بمثابة صدمة إيجابية؛ أي أنَّها صدمةٌ بالاتّجاه المعاكسِ للاكتئابِ الشَّديد الّذي أُصيبَ به النَّبي يعقوب-ع-»(مصطفى مولود ، المجلد ١٥: ٩١٤)، رسالةٌ تعرضُ التفاعلات الإنسانية بأدقِّ تفاصيلها من حبٍّ وحزنٍ

وفرحٍ، حبُّ الأَب لابنه، وحزنه على فراقِه، وفرحه لرجوعه، فشمُّ الرَّائحةِ ليسَ المقصدُ منه فقط إعادةَ الذاكرةِ لتلك الرائحةِ الزكيةِ الَّتِي كان يشمُّها الابُ بابنه، بل الأمرُ أبعدُ من ذلك، فالرّسالةُ تعني أنَّ يوسفَ موجودٌ حيٌّ، فيا لها من سعادةٍ وأمنٍ وسكينةٍ تستبطنُ الرُّوحَ والفرحَ والهدوءَ والاطمئنانَ ملأَتْ قلبَ يعقوبَ بشمِّه لهذه الرّائحةِ ليبقى في حالةِ انتظارٍ قاسٍ(ظ: الشيرازي١٤٢٦ه:٣٥٩/٦-٣٦٠)، وكلُّ ذلك عرضَتْه الآيةُ في حوارٍ تواصليٍّ غير لغويٍّ، عندَ دخولِ البشيرِ حاملاً رسالةَ البشرى، فيكونُ تواصُلُه معَ يعقوبَ(ع) والحاضرينَ تواصلاً غيرَ لفظيٍّ بالسّلوكِ الحركيِّ بإلقاءِ القميصِ على وجهِ يعقوبَ ورجوع بصره، وتكونت عناصر التواصل غير اللغوي في النص من: المُرسل : النبي يوسف(ع)، والمرسل إليه: النبي يعقوب-ع-، وقناته: تواصل غير لغوي، ورسالته: شم رائحة يوسف المتولدة من قميصه، والتي تدل على أنه حيّ، وشفراته: قول يعقوب: (أني أجد ريح يوسف) بعد شم الرائحة بمجرد تحرك القافلة.

- **المطلب الثاني: الأثر النفسي للزينة في التواصل:**

جاءَ القرآنُ بقوانينَ هدفها تحقيق الأمن والاستقرار النفسي في المجتمع، والقضاء على العنصرية، والطبقية فهما من أهم عناصر اضطراب المجتمع وتهديد أمنه؛ لذلك عرضَ النّصُّ القرآنيّ ما فعله قارونُ حينما خرجَ بأبهى صورة، وبكامل زينته، متبخترا متكبرا على من حوله، فصوّرَ النصُّ القرآني أثرَ تلك الزّينة في نفوسهم، ، قال تعالى:{ **فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ(٨٠)**}(القصص:٧٩-٨٠.)، تصوّر الآياتُ المباركةُ رمزاً من رموز الكفر والطُّغيان، وهو(قارون) الّذي أَنعم اللهُ _ سبحانه وتعالى_ عليه بنعم لا تُعدُّ ولا تحصى من حيثُ جمالُ الشَّكلِ، وجمالُ الصَّوتِ، وكَثرةُ ماله لكنّه لم يشكرِ اللهُ، بل ازدادَ كفراً وطغياناً، وبغى وتكبَّرَ وتغطَّرسَ، وعندَمَا نصحَه قومُه بالرّجوعِ إلى رشده(ظ: محمد متولي الشعراوي،١٩٩٧: ١١٠٢١/١٨)، كان تواصلُه معهم وردّه عليهم تواصل صامت غير لفظيّ يُوحي برسالةٍ خاصّةٍ، إذ خرجَ على قومه مستعرضاً زينته وماله، لتحمل زينته تلك رسالتينِ تواصليتينِ في اتجاهينِ متعاكسينِ، الأولى: استعراضُ قوّته وسلطته الَّتِي فهمها قليلو الإيمانِ، والثانية: بعكس الأولى تماماً، وهي تخبرُ عن ضعف شخصيته وهشاشته، فهو يجدُ بما يُزيّنُ مظهره أمراً يُخفي داخله شخصيته النرجسية المتكبّرة الَّتِي تجمعُ بين صفاتِ الشّخصيةِ(البارانوية)(البارانوية: مصطلح أطلقه علماءُ النَّفسِ عندَ تقسيمهم شخصيات الإنسان حسب بعض الصّفات والمعايير الَّتِي وضعوها، فأطلقوا هذا المصطلح على الشَّخص

الذي تتوافر فيه صفات الشَّك وعدم الثقة بالآخرين، والشّعور بالعظمة والتميّز، ويرتبطُ هذا النَّوع من اضطرابِ الشَّخصيةِ بانفصامِها، وهو مرضُ هذيان العظمةِ واضطهادِ الآخرينَ. (ظ: د. لطفي الشربيني ، ٢٠١٥ :٩٠)، وتتميّزُ بالتّركيزِ على الذّات، والإحساس الزائد بأهمّيّةِ النَّفس والرّغبة في لفتِ انتباهِ الآخرينَ، وعدم النّقد والأنانية من دونِ اعتبار أيّ وجود للآخرين(ظ: د. لطفي الشربيني، ٢٠١٥ :٩٠).

هذه الشَّخصيةُ المزدوجةُ الهشةُ أرادتْ أنْ تُوصلَ للناسِ عظمتها بزينتها!!!، وهو الشّيءُ الَّذي فهمه أَهلُ الإيمان، لنكونَ أمامَ استجابتينِ لرسالتِه التَّواصليّة: تمثّلتِ الأولى بموقفِ قليلي الإيمان، فقد كانَ ردُّهم بتمني ما عندَ قارونَ؛ لأنّه سحرَ أَعينَهم بزينته تلك فأنساهم ذكرَ ربِّهم، والاستجابة الثّانية: تمثّلَتْ بموقف المُؤمنينَ الآمنينَ نفسيّا المطمئنينَ بأنّ هذه الأموالَ والزينةَ زائلةٌ متزلزلةٌ كالزَّهرةِ الفواحةِ الَّتِي يعجبُك عطرها، ومنظرها لكنك إنْ لم تسقها ذَبلَتْ، وذهبَ عطرها وشكلها، فهذا هو ردّ الآمنينَ نفسيّا القريبينَ منَ اللهِ إذ لا أمنَ إلا معَه وبقربِه؛ لذلك جاءَ الردُّ والمواساةُ لهم بآخر الآياتِ كما ذكرها النَّصُّ المقدّسُ بالخسفِ بدارِه وعقابِه، وهذا أَكبرُ أَمنٌ نفسيّ للمؤمنينَ، وتذكير وموعظة لغير المؤمنين بأنْ يراجعوا أنفسهم، فلا ناصرَ لهم سوى الله يومَ لا ناصرَ إلَّا إيّاه كما ذكر ذلك القرآن الكريم:{فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ المُنتَصِرِين} (القصص:٨١)؛ لأنّه لا يصحُّ أن يعلو الإنسانُ على بني جنسه، ولا على بيئته إلَّا بشيءٍ ذاتي فيه، فاللهُ _ عزّ وجلَّ_ يريدُ للناسِ أنْ يعيشوا أَسوياء لتظلَّ القلوبُ متآلفةً، وهذا بدورِه ينعكسُ إيجاباً على المجتمعِ، فيوفّرُ الأمنَ والسّكينةَ فيه، والعاقبة الحسنة للمتقين، الّذينَ يسيرونَ على وفق الحدود الَّتِي رسمَها خالقُهم لَهُم، وهنا تتجلى أعلى درجات الأمن النَّفسي للفئةِ الَّتِي رفضَت فعلَ قارون، ولم تغترْ بما عنده(ظ: محمد متولي الشعراوي، ١٩٩٧: ١٨/ ١١٠٣٣_١١٠٣٦.)، وتكونت عناصر العمليّة التواصليّة من: المُرسل :قارون، و المرسل إليه: جميع من حضر وشاهده، وقناته: تواصل غير لغوي، والرسالة: الرسالة صامتة أراد قارون من خلال فعله ذلك إظهار قوته وسلطته، و شفراتها وسُننها : تمثلت في خروجه بموكب مهيب مستعرضا زينته وما يملك، فلقي مصيره بخسف داره به وما يملك.

- **المطلب الثالث: الأثر النفسي للسكن في التواصل:**

السَّكنُ رمزٌ للاستقرار والأمان، والسَّكينة والهدوء، إذ استعمله القرآنُ الكريمُ ليوصلَ من خلاله رسالتينِ تواصليتينِ، الأولى: رسالة الأمن والاستقرار والهدوء النّفسي، وهذا ما وعدَ به الله _ عزَّ وجلّ_ عباده الصالحين، والثّانية: رسالة التهديد والعقاب، وهي موجّهة لأهل النّار بتوفير سكن لهم، لكنّه خالٍ من أيّ مقومات السّكن، فلا يعمّه الهدوء والسكينة والراحة بل أساسه عذاب أليم.

ومن ذلك قوله تعالى: { **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً(١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً(١٠٨)** }(الكهف:١٠٧-١٠٨) فبعد أن كشفتِ الآياتُ السّابقة عاقبة الكفار والأخسرين أعمالا توجهت إلى بثِّ الأمان والاطمئنان في نفوس المؤمنين ببيان ما ينتظرهم، فالمرسل هنا(الله - سبحانه وتعالى-)، والمرسل إليه(المؤمنون) الذين((آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحاتِ بجوارحهم ، وشمل هذا الوصف جميع الدين، عقائده، وأعماله، أصوله، وفروعه الظاهرة، والباطنة))(عبد الرحمن السعدي،٢٠٠٠ :٤٨٨) فوصلوا إلى درجات الإيمان العليا فاستحقوا بذلك(جنات الفردوس).

ومن الحاجات الأساسية لكلِّ شخصٍ يأتي من سفرٍ توفير مكان لراحته الجسدية والنفسية، ليشعر بالأمان والهدوء والاستقرار؛ لذلك نجدُ أنّ النّص القرآني يرسلُ رسالةً تواصليةً تريحُ النفسَ والعقلَ معاً بتوفير ذلك السكن الذي تتوفرُ فيه كلّ سبل الراحة والهدوء النفسي بقوله: { كانت لهم جنات الفردوس} فأيّ سكنٍ يبغى الشخص بعد هذا السّكن وهذا المكان؟، ولزيادة الأمنِ والاطمئنان النفسي جاء الفعل بصيغة الماضي(كانت) ولم يقل النص(تكونُ)، وهنا غاية الأمن النفسي لهم ففيه دلالة على أنَّ استحقاقَهم الجنّات أمرٌ مستقرٌ من قبل مهيّأ لهم ، ومجيء اللام في قوله{ كانت لهم} تكريما لهم بأنّهم نالوا الجنة باستحقاق إيمانهم وعملهم، ولزيادة الأمن والسكينة في نفوسهم جاءت(جنات الفردوس) جمعاً وليس مفردةً إيماءً إلى سعة نعيمهم؛ وإشارة إلى أنّها جنات كثيرة خالصة لهم(ظ: ابن عاشور،١٩٨٤ :٥٠/١٦).

وقد اختلف المفسرون في ماهيّة(الفردوس)، فقد قيل: ((..هي الجنة الملتفة بالأشجار والغالب عليه الكرم))(محمد حسين الطباطبائي،د.ت:٣٩٦/١٦.)، وذكر الزجاج(تـ٣١١هـ) أنّ قوما قالوا: إنّها((الأودية الَّتِي تنبتُ ضروباً من النبتِ...وحقيقته أنّه البستان الذي يجمعُ كلّ ما يكون في البساتين))(الزجاج،١٩٨٨ :٣١٤/٣-٣١٥.)، وجاء في (معاني القرآن) للنحاس(تـ ٣٣٨ه) القرآن): ((سُرَّة الجنة))(النحاس، ، ١٩٨٨ :٣٠٠/٤)، والمقصود بـ(سُرّة الجنة) وسطها وجوفها وأكرمها(ظ: الأزهري،د.ت :٢٨٥/١٢.)، وقيل: إنّ كُلّ موضعٍ فيه كرم يُسمى(فردوسا)(ظ: الجواليقي، ١٩٦٩م/ ١٣٨٩هـ :٢٨٨).

ومهما يكن من تعدّد الآراء إلَّا أنّها تدورُ حول معنى واحد، وهو ((البستان الذي يشملُ كلَّ النّعم، والمواهب اللازمة، وبذلك فالفردوس هو أفضل وأكمل البساتين في الجنة)) (الشيرازي، ١٤٢٦ه:٥٩٦/٧.)، وإنّها((تعتبر أفضل مناطق ذلك العالم، حيث إنَّ الساكنين فيها لا يتمنّون أبداً الانتقال منها إلى مكانٍ آخر))(الشيرازي، ١٤٢٦ه:٦٠١/٧).

وإذا توقفنا عند لفظ (الفردوس) صوتيا يُلاحظ أنّ اللفظ يتألف من(٧) صامتة وصائتة تعاضدت كلّها لتأدية المعنى المراد منها، وخيرُ دليلٍ معبرٍ هو ابتداء اللفظ بصوت (الفاء)،

وهو صوتٌ« شفوي أسناني احتكاكي مهموس»(د. حازم علي كمال الدين، ١٩٩٩ :٤٣)، وانتهت بصوت(السين)، وهو صوت«لثوي احتكاكي مهموس»(سليمان فياض، ١٩٩٨م: ٦٥)، ومجيء الأصوات المهموسة الاحتكاكية في بداية اللفظ ونهايته يتناسب مع دلالة السكون والهدوء النفسي الذي يعمُّ نفوس المؤمنين في جنة الفردوس، ويدلُّ على سعة إغداق النعم عليهم، وانتشارها، وهي « دلالة تنجم عن صفتي الهمس والاحتكاك فاستمرار مرور الهواء من منفذ –ولو كان ضيّقاً- وانحصار الصّوت في موضع إنتاجه من دون الحاجة إلى ذبذبة الوترين الصّوتيين ومن ثَمَّ يتسعُ وينتشرُ من موضعه إلى أنحاء الفمّ فيمنحُ الكلماتِ الَّتِي تحتوي هذا الصّوت إيحاءً دلالياً بالسَّعةِ والانتشارِ فضلاً على ما فيها من دلالات»
(ابتسام عبد الحسين القصير، ٢٠٠٦م: ٨١.)، ويُلاحظ سيطرة الأصوات المرقّقة على الكلمة، ولهذا دلالته في النّص؛ فالأصوات المرقّقة توحي لترقيقها وسهولة نطقها بحالة من السكون والهدوء والارتياح الذي بات المؤمنون يحسون به.

وممّا ساعدَ في ترسيخ الأمن النفسي في نفس المتلقي هو الدقة في انتقاء اللفظ الذي زادَ النصّ تماسكا، إذ إنَّ لرقة ودقة كلماتِ المرسل أثره في نفس المرسل إليه، فقد انتقى السياق لفظ (النُزُل) من دون المسكن أو البيت أو الدار، والأصل في (النُزُل): «ما يُعدُّ للنازل من الزاد... وأنزلتُ فلاناً: أضفته»(الراغب الأصفهاني،٢٠٠٩ : ٨٠٠_٨٠١.)، وذكر الطبري أن نزلاً تعني: «منازل ومساكن، والمنزل: من النزول، وهو من نزول بعض الناس على بعض...»(الطبري،٢٠٠٢: ١٤٥/٢٤).

ومن هنا يمكنُ القولَ أنّ النّصَ القرآني قد انتقى لفظ(نُزُلاً)؛ لِما فيه من دلالة الإكرام والضيافة(ظ: ابن كثير،١٩٩٩ :٢٠٤/٥.)، و« ما يعدّه الإنسان لإكرام ضيفه من الإقامة، ومقوّمات الحياة وترفها، والإنسان حينما يُعدُّ النُزُل لضيفه يعدّه على حسب قدرته وإمكانياته، وعلمه بالأشياء، فما بالك إنْ كانَ المعدُّ للنُزُل هو الله تبارك وتعالى؟»(محمد متولي الشعراوي، ١٩٩٧: ٩٠٠٨/١٥)، ولِما في كلمة (نُزُل) من إيحاء تواصلي بالضيف والضيافة، ومدّة الضيافة _ كما نعلمُ_ محدودة و لإبعاد مثل هذا الشعور عن نفوس المؤمنين احترسَ النّصُ القرآني بلفظ (خالدين)، والخلود في الجنة « بقاء الأشياء على الحالة الَّتِي عليها من غير اعتراض الفساد عليها»(الراغب الأصفهاني،٢٠٠٩ :٢٩٢)، وجملة{ لا يبغون حولاً} تنبيه وتأكيد للخلود ومدح للجنة بأن لا مسكن أعلى منها فتطمعُ له النفس(ظ: ابن كثير،١٩٩٩ :٢٠٤/٥).

وممّا تقدّم يُلاحظ أن العملية التواصلية تمّت بصيغة تواصلية غير لفظية من خلال لفظ السكن (جنات الفردوس)، الذي شكّلَ رمزاً تواصليا رُمِز فيه إلى المكان الذي ينتظر المؤمنين، فحقّقَ

أعلى درجات الأمن، والاستقرار للمؤمنين بتوفير السكن الذي لا يُعلى عليه أيّ سكنٍ، وتشكلت عناصر العملية التواصلية من: المرسل: الله (سبحانه وتعالى)، و المرسل إليه: المؤمنون، و قناة الاتصال: تواصل غير لفظي، والرسالة: بيان مصير المؤمنين، شفراتها: الرمز اللغوي السكن(جنات الفردوس) الذي يرمز إلى الاستقرار والسكينة والهدوء النفسي.

- **المطلب الرابع: الأثر النفسي للون الوجه في التواصل:**

وللون الوجه أثرٌ كبيرٌ في إرسال رسالة تواصلية يمكنُ للمتلقي فكّ شفراتها ورموزها، ومعرفة مدى اطمئنان صاحب هذا الوجه أو عدمه، ومن أجلِ ذلك تعددت ألوان الوجه في النَّصِّ القرآني في آيات الأمن النفسي لتصفَ راحة واطمئنان من تمسّك بالطَّريق الَّذي رسمَه له خالقه، وتعب وقلق تواجه منَ حادَ عن ذلك الطَّريق، فقد انعكس ذلك وبشكل جلي على وجوههم؛ لأنَّ «التأثر الأوَّلي هو في المقام الأوَّل سلوك وجهي». (جان كلود مارتان، ٢٠٠٤م:٢٦).

وبناءً على ذلك، يشكّلُ اللونُ في العملية التَّخاطبية بنيّة لُغوية مهمة « ذلك أنَّه في حدِّ ذاته لغة قادرة على حمل المدلولات الكافيّة لإيصال المعنى»(المتوكل طه، ٢٠٠٣م:١١٧)، ممّا يجعل اللون« عضواً حيّا في وحدة النَّصِّ»(ظ: يوسف حسن نوفل، د.ت:٤١.)؛ ومن ذلك ما ذكره النَّصُّ القرآني في قوله تعالى: { **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُون(١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون(١٠٧)**}(آل عمران:١٠٦-١٠٧) ، ترسلُ الآياتُ المباركة رسالة تواصلية متوجّة بالرحمة الالهية بما تبثه من أمن نفسي في قلوب المؤمنين من تصوير هذه الثَّنائية المتضادة لما سيؤول إليه مصير كلّ فريق متخذة أدواتها الفنية من واقع البيئة العربية لتكون أعمق في النفوس، ولتأكيد وقوع الحدث فقد بدأت الآية المباركة بالإشارة الزمانية(يوم)، وأعقبه مجيء فعلي(تبيضّ) و(تسودّ) بصيغة المضارع الدالة على تجدد الحدث ووقوعه واستقباله لأنها أسندت لمتوقع وهو ظرف الزمان(يوم) ، فضلاً عن أنّ النَّصَّ في مقام إثبات رحمة الله بهذه الفئة المؤمنة لِمَا سيحدثُ في المستقبل؛ ولزيادة التأثير التواصلي في نفس المتلقي تكرّرَ فعلي البياض والسَّواد ولكن بصيغة الماضي؛ لأنَّ زمانَ المتكلِّمِ هو محور الزَّمن، فإذا أراد المتكلم التأثير في المخاطب استحضر صيغة الماضي لتخبر عن حصول الشيء، واكتماله وقوله (أبيضت، أسودت) تشيران إلى ثبوت البياض والسَّواد في الوجوه واستمراره.

ومن عمق دلالات البيئة العربية انتقى الأسلوبُ القرآنيُّ علاماتِ ألوان الوجوه؛ لأنّ النَّصَّ القرآني يخاطبُ إحساس المتلقي، وهذا الإحساسُ نابعٌ ممّا يحيطه والعرب تستعملُ

اللَّونَ الأبيضَ للوجوه للدلالة على السَّلامِ، والنَّقاءِ والصَّفاءِ والإشراق(ظ: د. أحمد مختار عمر، ١٩٩٧: ١٤١)، بينما يرمزُ اللَّونُ الأسودُ عندهم إلى المهانة والخوف من المجهول والفناء والاستسلام النهائي الذي ينتج عنه سلوكا متطرفا لطبيعة قلقه مريضة.(ظ: أحمد مختار عمر،١٩٩٧ :١٦٠؛ و١٩٥-١٩٦)، وهنا يتضح الفرق بين الوجوه الَّتِي نالت السلام الداخلي، و رضوان الله فانعكس عليها، وبين تلك الوجوه المعذبة الَّتِي بقيت في عذاب أبدي وقلق نفسي يسود قلوبهم ليظهر جليا على وجوههم، وللتنبيه على عظم الفرق بينهم جاء الطباق في الآيات الكريمة(تبيض وجوه، تسود وجوه) و(أبيضت ، أسودت)؛ ليرفد الدلالة اللونية جمالية تعطي دلالات الإضاءة والهدوء والأمن والإشراق والسلام الداخلي الذي دلَّ عليها اللونُ الابيضُ لأنّه((يمثّلُ البداية مقابل النهاية))(د. أحمد مختار عمر،١٩٩٧ : ١٨٦.)، وهو رمز الفوز في الآخرة بينما مثّلَ اللونُ الأسودُ قمةَ القلقِ النّفسي والألم، والفناء والعدم؛ لأجل ذلك ساقهما النصّ القرآني في مشهد واحد ليُعبرا عن التّضاد الشّديد بينَ هذين الفريقين كتضاد اللونيين في الدّلالة، ولا سيّما إنَّ الأشياءَ تزدادُ حسنا بالتضاد(ظ: عبد القاهر الجرجاني، ١٩٨٨م:٢٤.).

ويكمنُ السّرُ التّواصلي الدّلالي من مجيء هذه الصّورة اللونية المتضادة بجذب انتباه المتلقي ليجعل جزءاً منها يتمتعُ بالسِّيادة المطلقة، وهم أصحاب اللون الأبيض؛ لأنّه ((النفس المطمئنة لأن صاحب هذه المرتبة قد بلغ الاطمئنان)) (د. ضاري مظهر صالح، ٢٠١٢: ٩٧).

ويتجلّى الأمن النفسي في شمول الذين ابيضت وجوههم بالرحمة الالهية و((مفهوم الرحمة الالهية من المفاهيم الواسعة المطلقة، وحين يصف الحق مكانة الذين ابيضت وجوههم بأنَّهم في رحمة الله تعالى هذا يعني أنَّ الحقَّ تعالى جعلهم في مطلق رحمته بشكلٍ أبدي، وللرحمة وجوه مطلقة من السعادات.. منها ما هو معنوي، ومنها ما هو حسي، ومنها ما هو روحاني، ومنها ما هو قرب من الحق تعالى...والَّتِي تمثل بمجموعها أركان الرَّحمة الواسعة الَّتِي وعد الله بها خاصته وأهله))

(د. ضاري مظهر صالح، ٢٠١٢: ١٠٤) بأنهّم فيها خالدون دائمون بصيغة اسم الفاعل الدالة على ثبوت ذلك الخلود.

ولاستعمال اللون في الآيات يؤدي وظائف معينة، وهي:

- **وظيفة تعبيرية**: بتوظيف الألفاظ الَّتِي تحمل معاني تثير عاطفة المتلقي كالفرح والحزن.
- **وظيفة رمزية:** بإيحاء الألفاظ الذي يدعو المتلقي للتبحر فيه وصولا إلى مدلولاته بما يضيفه من استجابة نفسية تحرك عواطفه للبحث عن دلالته.

- **وظيفة حسية:** بتأثر العين باللون بالواقع مما يجعل المتلقي يتعاطف ويميل لما يسعده ويجذبه ليكون وسيلة لاطمئنانه الروحي.

وتشكلت عناصر المنظومة التواصلية في الآية المباركة من: المرسل: الله – سبحانه وتعالى-، والمرسل إليه: كافة الناس، وقناة التواصل: قناة الاتصال: تواصل غير لغوي، والرسالة: رسالة اطمئنان وأمان لمن آمن بالله من خلال وصف مصيره، وشفراتها: شفراتها: تواصل غير لفظي بلون الوجه الدال على مصير كلّ فريق.

الخاتمة:

يظهر ممّا تقدّم:

١. تعدّدُ أنواع التّواصل بينَ البشر، فَلا يُمكنُ الاكتفاء بالتّواصل اللّغوي المُتمثّل بالكلامِ المنطوق فحسب، بل إنَّ للتواصل غير اللغوي أهميّة لا تَقلُّ عَنْ سابقِه، وهذا مَا كشفَ عنه الخطابُ القرآني فِي آياتِ الأمن النّفسي إذ إنَّه قدِ استعملَ التّواصل غير اللغوي في كثيرٍ مِن المواقفِ مِنْ أجل إيصال رسالة مُعينة للمُتلقين، والتأثيرِ فيهم وإيصال الأفكار لهم. تعدّدتْ أنماطُ السّلوكِ الحركي فِي آياتِ الأمن النّفسي، ويمكنُ تصنيفها إلى خمسة أصناف:(لغةُ العينِ، إشاراتُ اليدِ، حركةُ الرأسِ، تعابيرُ الوجه).

٣. أظهرت الدراسةُ: أنّ تعابيرَ الوجهِ هي أكثر أنواع التّواصل غير اللُّغوي فِي القُرآن عامّة، وفِي آياتِ الأَمن النّفسي خاصّة؛ لأنّ الوجهَ مرآةُ الإنسانِ، ويعكسُ مَا في داخله.

*** المصادر والمراجع**

*** القرآن الكريم**

*** أولا: المصادر**

١. الأزهري، أبو منصور، محمد بن أحمد (٣٧٠هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق: يعقوب عبد النبي، مراجعة: الأستاذ محمد علي النّجار، الدّار المصرية للتأليف والتّرجمة، مصر، د.ط، د.ت.

٢. البغوي، أبو محمد، الحسين بن مسعود البغوي (٥١٦هـ)، معالم التّنزيل، تحقيق: محمد عبد الله النّمر، وعثمان جمعة، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة، الرياض، ط١، ١٩٨٩.

٣. التفتازاني، أبو سعيد، سعد الدين مسعود بن عمر السمرقندي (٧٩٢هـ)، شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، د.ت.

٤. الجرجاني، أبو بكر، عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت٤٧١هـ)، أسرار البلاغة في علم البيان،

تصحيح: الأستاذ الشّيخ محمد عبدة، تعليق: السّيّد محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.
٥. ابـن جنـي، أبو الفتـح عثمان (ت٣٩٢هـ)، الخصائص، تحقيـق: محمد علي النّجـار، دار الكتب المصرية، مصر، ط٢، ١٩٥٢م.
٦. الجواليقـي، أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمـد (٥٤٠هـ)، المعرّب من الكلام الأعجميّ على حروف المعجم، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، مطبعة دار الكتب المصرية، ط٢، ١٩٦٩م.
٧. الجوهري، إسماعيل بن حمّاد (ت٣٩٣هـ)، الصِّحاح تاج اللُّغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٩٠م.
٨. ابـن دريـد، أبو بكر محمد بن الحسـن الأزدي (ت ٣٢١هـ)، جمهرة اللّغـة، مطبعة دار المعارف، مصر، ط١، د.ت.ط١، ١٩٩١.
٩. الرّازي، فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدين عمر (ت٦٠٤هـ)، التّفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨١م.
١٠. الراغب الأصفهاني، أبو القاسـم، الحسـين بـن محمد (٤٢٥هـ)، مفردات ألفـاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، ط٤، ٢٠٠٩.
١١. الزّبيدي، محمد مرتضى الحسيني (ت ١٢٠٥هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد الكريم الغرباوي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ط٢، ١٩٨٧م.
١٢. الزّجاج، أبو إسـحاق، إبراهيم بن السـري(٣١١هـ)، معاني وأعرابه، تحقيق: الدّكتور عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، ط١، ١٩٨٨م.
١٣. الزّمخشري، أبو القاسم، جار الله محمود بن عمر (ت٥٣٨هـ)، الكشاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، تحقيق: عبد الرّزاق المهدي، دار إحياء التّراث، بيروت، ط٢، ٢٠٠١م.
١٤. السجستاني، أبو بكر محمد بن عبد العزيز(٣٢٠هـ)، غريب القرآن، تحقيق: محمد أديب جمران، دار قتيبة، ط١، ١٩٩٥.
١٥. أبو السـعود، محمد بن مصطفى العمادي (٩٨٢هـ)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ط، د. ت.
١٦. السمين الحلبي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف(٧٥٦هـ)، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، تحقيق: محمود أحمد السيد الدغيم، دار السيد للنشر، ط١، ١٩٨٧.
١٧. الطّبرسـي، أبـو علـي الفضل بن الحسـين (ت ٥٤٨هـ)، مجمـع البيان في تفسـير القرآن، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٦.
١٨. الطّبـري، أبـو جعفر، محمد بن جرير (ت٣١٠هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، ضبط وتعليق: الدّكتور بشّار عواد، وعصام فارس، مؤسسة الرّسالة، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٢م.
١٩. ابـن كثير، أبو الفداء، إسـماعيل بن عمر بن كثير القرشـي (ت٧٧٤هـ)، تفسـير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السّلامة، دار طيبة، الرّياض، المملكة العربية السّعودية، ط٢، ١٩٩٩م.

٢٠. النّحــاس، أبــو جعفر أحمد ابن محمــد (٣٣٨هـ)، معاني القرآن، تحقيق: محمــد علي الصّابونة، جامعة أمّ القرى، ط١، ١٩٨٨.

ثانيا: المراجع الحديثة

١. أحمد مختار عمر (الدّكتور)، اللغة واللون، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٧م.
٢. حازم علي كمال الدين (الدكتور)، دراسة في علم الأصوات، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ١٩٩٩.
٣. سليمان فياض، استخدامات الحروف العربية (معجمياً، صوتياً، صرفياً، نحوياً، كتابياً)، دار المريخ للنشر، الرّياض، السّعودية، د.ط، ١٩٩٨م.
٤. سيد كسروي، لغة الجسد في القرآن الكريم، د. ط، د.ت.
٥. سيّد قطب، في ظِلال القرآن، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، لبنان، ط٥، ١٩٦٧م.
٦. صــلاح الديــن جوهر، علم الاتصــال (مفاهيمه – نظرياتــه- مجالاته)، مكتبة عين شــمس، د. ط، ١٩٧٩.
٧. ضــاري مظهــر صالح (الدكتور)، دلالة اللون في القرآن والفكر الصوفي، دار الزمان، ســوريا، ط١، ٢٠١٢.
٨. عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٠.
٩. لطفي بركات أحمد، الطبيعة البشــرية في القرآن الكريم دراسة نفسية تربوية اجتماعية، دار المريخ للنشر، ط١، ١٩٨١.
١٠. لطفي الشــربيني (الدكتور)، تأملات في الإشارات النفسية في القرآن، دار العلم والإيمان، مصر، ط١، ٢٠١٥.
١١. المتوكل طه، دراسة في الثلاثاء الحمراء لإبراهيم طوقان – البحث عن شاعر آخر، بيت المقدس للنشر، القدس، ط١، ٢٠٠٣م.
١٢. محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، دار الكتب الإسلامية، طهران، د.ط، د.ت.
٣١. محمد سلامة محمد غباري، والسيد عبد الحميد عطية، الاتّصال ووسائله بين النظرية والتطبيق، المكتب الجامعي الحديث، د.ط، ١٩٩٩.
١٤. محمد الطاهر بن عاشــور (الشــيخ)، تفســير التّحرير والتّنوير، الدّار التّونســية للنشــر، تونس، ١٩٨٤م.
١٥. محمد علي عبد الكريم الرديني، فصول في علم اللغة العام، عالم الكتب، ط١، ٢٠٠٧.
١٦. محمد متولي الشعراوي (الشيخ، تفسير الشعراوي(خواطر)، د. ط، ١٩٩٧.
١٧. محمود فهمي حجازي (الدكتور)، مدخل إلى علم اللّغة، دار قباء للطباعة والنشــر، القاهرة، د.ط، د.ت.
١٨. منال طلعت محمود (الدكتورة)، مدخل إلى علم الاتصال، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية،

د.ط، ٢٠٠٢.
١٩. ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، دار النشر لمدرسة الإمام علي بن أبي طالب(ع)، قم، إيران، ط١، ١٤٢٦ه.
٢٠. نعمان محمد أمين طه (الدكتور)، السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، طبعة دار التوفيقية للطباعة بالأزهر، ط١، ١٣٩٨هـ.
٢١. يوسف حسن نوفل، الصورة الشعرية والرمز اللوني، دار المعارف، القاهرة، د. ط، د.ت.

ثالثاً: المراجع المترجمة

١. آلن بيز، لغة الجسد (كيف تقرأ أفكار الآخرين من خلال إيماءاتهم؟)، تعريب: سمير شيخاني، دار الآفاق الجديدة، بيروت، طبعة الدار العربية للعلوم الأولى، ١٩٩٧.
٢. برنت روبن، الاتصال والسلوك الإنساني، معهد الادارة العامة، ط١، ١٩٩١.
٣. جوزيف ميسنجر، لغة الجسد النفسية، ترجمة: محمد عبد الكريم إبراهيم، منشورات دار علاء الدين، دمشق، سورية، ط١، ٢٠٠٧.

رابعاً: الأطاريح والرسائل الجامعية

إبتسام عبد الحسين سلطان القصير، التغيّر الصوتي في الفواصل القرآنية ودلالاته، ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠٠٦م.

خامساً: البحوث والدوريات المنشورة

أحمد رشيد حسين(الدكتور)، إيمان خليفة إسماعيل ظاهر(الدكتورة)، حركات العيون، ودلالاتها النفسية في القرآن الكريم (دراسة في اللغة غير اللفظية)، مجلة جامعة بغداد، ٢٠١٨.
جان كلود مارتان، الوجه: الكذاب المفضّل ترجمة: حسن الطالب، مجلة علامات، العدد (٢١)، ٢٠٠٤م.
عودة عبد عودة عبد الله، الاتصال الصامت وعمقه التأثيري في الآخرين في ضوء القرآن والسنة النبوية، مجلة المسلم المعاصر، القاهرة، مصر، العدد١١٢، ٢٠٠٤.
مصطفى مولود عشوي، سورة يوسف (قراءة نفسية)، مجلة جامعة الملك سعود، المجلد ١٥.
وليد محمد السراقبي (الدكتور)، سيمياء الجسد في القرآن الكريم (دراسة تحليلية)، مجلة دواة، ع ١٦، المجلد:٤، ٢٠١٨.

سادساً: مواقع الانترنيت

خالد الأودن (الدكتور)، الشم حاسة لها تأثير على عواطفنا (بحث منشور): www.amp.dw.com.
غيداء أبو خيران، أن تشم ذاكرتك كيف ترتبطُ الروائح بالذكريات والمشاعر (بحث منشور): www.noonpost.com.